الإلـــــــه

هبة فاروق

الإلـــــــه

هبة فاروق

مركز ليفانت لتنمية الموارد البشرية
«دراسات ودار نشر»
الإسكندرية، مصر
أدونيس للثقافة والنشر، ريف دمشق، سوريا

اسم المؤلّف: هبة فاروق
عنوان الكتاب: الإلـــــه
الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م

جميع الحقوق محفوظة لمركز ليفانت
levantegsy@gmail.com

موبايل ٠١١١٤٣٩١٦٠٠ هاتف ٠٣/ ٤٨٣٠٩٠٣/
عنوان: ط٣، بناء ٤٤، ش سوتر، أمام كلية حقوق
الإسكندرية، مصر
دار الكتب والوثائق القوميّة - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٣٣٥٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: 978-977-85366-1-4

رسوم: زينب عرفة
الغلاف: أحمد شوقي
خطوط: عادل طوسون
تصحيح لغوي: مختار شحاتة

إهـــداء

إلى النور الوحيد في حياتي...
أحبكِ أمي.

ريحانة...

ريحانة...
واحتنا الباكية قرب الجبل
يا ريحانة...
لا شيء فيكِ إلا القبور
قبر أنتِ بحجم تاريخكِ القديم
ألف ثم ألف من الأعوام
يمضي والموتى ماضون
حتى أحياؤكِ موتى صامتون
لماذا تأخرت حبيبي؟
حلمي كان يضيء بوجهك البرتقالي
يا نسمة الصبا ما زلت أذكرك
في كل يوم مرتين
ألا يأتيك طيفي يخبرك عني
لو فقط أراك مرة صدفة
يا كل همي
ألم يخيط شفتي بحديث حبي

فأشرب من نبيذ الصمت
المعجون بالشعر المقفى
في كتاب أصفر الصفحات
كلون وجهي
والعمر يمضي

يا ريحانة...
كنتِ لي دفء ومصابيح حياة
وعصافير تغنى قرب باب الدار
لماذا صرتِ موحشة بأشباح الذكريات
والجوعى والأسرى والظلم اللعين

تصاعدت الرمال في دوامات ساخنة لها دَوِّي، سمعته كل نفس في ريحانة من خلف الأبواب المغلقة.

لا شيء في هذا المساء إلا حلقات التراب المكونة لسماء ريحانة، وحدي في هذا العراء أستند على وتد الخيمة التي ثبتت بثقل جسدي...

والجميع مختبئون في بيوتهم الواهنة، لا أحد يشاركني إلا الطبيعة الأم؛ تحتفل معي بأنفاس الصحراء الحارقة، وبنفحات الريح الملتهبة، تشاركني، تنتظره معي؛ إنه الكهل الساكن داخلي، مضت ثلاث ليالٍ وهو يحاول أن يمزق ثوب الشباب ويصعد من مكمنه.

العتمة شديدة، وصفير الريح –التي تتسلل من أمامي دون أن تلمسني –يحكي حكايات، فالحكايات لا تولد إلا من قلب العتمة.

– إنها الأربعون يا ريحانة، صرت في الأربعين، أنا ثائر، منقطع النسل، مكسور الجبهة.

أتذكرين يا ريحانة يوم ولادتي، هذا اليوم البعيد، أمي لم تصرخ، إنما رددت كلمات غير مفهومة، وحيدة في الخيمة تقطع الحبل الرابط بيننا، وتقطّع معه ما يربطها بالدنيا.

– من سيرضعك يا ثائر؟

قالها أبي الشيخ سالم العجوز، وكأن أمي تعاهدت والشاة الوحيدة التى يملكها الشيخ في هذا العام، الذى أصيبت ريحانة فيه بالقحط...

تعهدتني الشاة حتى فُطمت.

***

ثائر لا يبكي أبـدًا، لا يصرخ كالصغار، يأكل كسرات الخبز، ويشرب الماء، ماتت أمه الشاة بعد الفطام.

كبر ثائر قليلاً، لا يلعب، فقط يتأمل الصبية وهم يقفزون حوله ويصخبون...

جالس يعبث بعصا صغيرة في الرمال، يرسم أشكالاً ما تلبث الريح أن تمحوها، فيعيد رسمها من جديد...

حفنة من تراب تطايرت من يدّ أحد الصبية، لمست شعر ثائر وكتفه، ضحك الصبية منه، تقدم الصبي القاذف بالرمال ناحية ثائر ضاحكًا، هزّ ثائر رأسه ليتساقط التراب من فوق جبهته وثوبه، لم يبالِ، مستمرًا في الانشغال برسمه فوق الرمال...

جاء الشقي ساعيًا إليه ليعيد فعلته مرة أخرى، رفع ثائر يده أمسك يد الصبي، قبض على ساعده وضغط عليه ضغطة مؤلمة؛ فصرخ صرخة عالية سمعتها ريحانة، وتسللت ذرات الرمال من بين أصابعه...

تعرق وجه ثائر، وانتفخت أوداجه، حتى صار الدم يُرى من خلف طبقة جلده وهو يسير في عروقه.

صمت جميع الصبية الذين تحلقوا حولهما، وهم يرون الصبي يسقط على الأرض وجسده يرتعش، وراقبوا يدّ ثائر التي ضمها إلى جسده الهائج المنتفخ بالدماء، فتح ثائر يده بعد أن ترك الصبي يسقط.

أقسم أهيب وغيره من الصبية أنهم رأوا حروفًا مكتوبة على يد ثائر...

جاء الشيخ عيد – شيخ ريحانة وكبيرها – ورجالها على صوت الصراخ، انعقدت الألسن بالصمت، لم يستطع أحد أن يقترب من ثائر، قال أحد المشايخ وكان قارئًا: إن الحروف على يد ثائر هي اسم الصبي الملقى على الأرض...

قيل إن هذا الصبي ما لبث أن صار مجنونًا بعدها بسنوات قليلة.

هدأ ثائر، جلس مكانه الأول، تحركت يده بعد شلل أصابه، واختفى اسم الصبي من فوقها.

لم تنس ريحانة ما حدث.

***

جلس الشيخ الطيب، تحلق الصغار حوله؛ ليحكي لهم الحكايات على صوت ربابته الحزين كان ضريرًا، ولكنه كان يرى (ثائر)...

بعد أن حكى حكايته، انصرف الجميع للعبهم، وبقى ثائر يعبث في الرمال تحت قدميه...

ناده الشيخ الطيب: تعال يا ثائر.

تعجب ثائر: هل تراني يا شيخ؟!

ضحك الشيخ: وأستطيع أن أصفك أيضًا، فأنت أطول من أقرانك قليلاً، لك وجه أبيض تظهر فيه بثور قليلة، فوق عينيك حواجب كثيفة، وشعرك طويل مجعد، ترتدي قفطانًا رماديًا قصيرًا وعليه صديري أبيض، أليس كذلك؟

فغر ثائر فاه، وقال: كيف تراني؟!

رد عليه بقوة، وهو يلكزه في كتفه: بقلبي يا ولد.

استند الشيخ الطيب على كتف ثائر؛ ليقوده إلى بيته، وقال:

– اعلم يا ثائر أن بعض رجال الواحة لهم مثل الأرض قوة، ربما يعرفونها ويدركون وجودها، وربما تمر أيامهم دون أن يدرون عن قوتهم شيئًا.

– وما قوة الأرض يا شيخ؟

– سأحكي لك عن الواحة...

قديمًا جاء جيش عظيم من الفرس لغزو الواحة، اجتمع رجال الواحة ونساؤها وأطفالها – من كل النواحي – في وسط الواحة، ظلوا يبكون طوال الليل ويبتهلون للأرض أن تحمى نفسها لأنهم أعجز من أن يحموها...

– أتعرف ماذا حدث يا ثائر؟

– ماذا حدث يا شيخ؟

يذكر الناس الذين حضروا، ثم حكوا لمن عاش بعدهم: أن ريحًا عظيمة هبت حول الواحة، لم يشعر الناس إلا بصوتها، حملت الرياح الرمال، حتى رأى الناس الرمال ترتفع كسورٍ عظيم أحاط الواحة، كانوا يسمعون صراخ جيش قمبيز ملك الفرس الذى كان من خمسة آلاف رجل...

– ثم ماذا؟

– هدأت الرمال، واختفى الجيش كأنه لم يكن، ابتلعته الرمال، إنها قوة الأرض يا ثائر.

– وهل لي قوة مثل قوة الأرض؟

ابتسم الشيخ: ابحث لتعرف.

ظل ثائر يفكر في كلمات الشيخ، مات الشيخ بحكاياته، وصمتت ربابته، ولكن ثائر لم ينس الحكاية.

***

مرت سنوات قليلة، ثائر فتى قوي سريع الخطى، يسير في طرقات ريحانة يرعى أغنامها ويجني التمر بساعديه القويين، يرحل إلى البيت مع المغيب، يجلس قليلاً أمام باب البيت يرقب حمرة الشمس المغادرة، حتى إذا تلاشت في الأفق فتح الباب الخشبي القصير، وأحنى ظهره قليلاً ودخل...

يُلقي التحية على أبيه، يطعمه لقيمات قليلة، يغسل وجهه بالماء، يسكب عطرًا على ثوبه ويتركه لينام، ليذهب إلى مجلسه خلف الباب، يتابع نجوم السماء الراقصة في ساحتها.

الشيخ سالم لا يملك إلا عينًا تتحرك في مآقيه، يراقب ابنه ثائر، يعرف حيرته، يراه في أحلامه يطاول السماء بيديه، يتمنى أن يخرج من حبس جسده المشلول ليساعد ثائر، يُخرج الحزن من عينيه...

هذا الحزن الذى لم يتركه منذ اللحظة التي حمله فيها يوم ولادته، يومها دخل على زوجته فوجدها غارقة في دمائها، وثائر ملقى على الأرض، لا يبكي كالصغار؛ فاعتقد أنه مات كأمه، ولكن وجد عينيه مفتوحتين، تعلنان عن حياته، لم يرَ عيني مولود مفتوحتين من قبل...

***

الطريق طويل بين البيت ونخلات الشيخ عيد، شيخ ريحانة الأكبر...

يسير ثائر قبل طلوع الشمس على مهل، النسيم خفيف لا يثير الرمال حوله، يعد حبات الرمال التي أمامه، الآلاف منها تتباعد من تحت قدميه؛ ليسير فوقها كأنه يطير، لا تترك قدماه أثرًا في الرمال الكثيفة.

(سر يا ثائر على مهل، لا ترتقب النور، لا تبحث عنه، إنه ليس أمامك، ليس في السماء ولن يخرج لك من الأرض، إنه هناك داخلك)

تلفت ثائر حوله، إنه الصوت مرة أخرى؛ هذا الذى يؤنس لياليه، يحدثه عن كل شيء، يخبره عن الواحة: رجالها، ونسائها، وأطفالها، يراهم ثائر من خلف أبواب بيوتهم يسمعهم؛ يسمع حتى همساتهم.

- أي نور أيا الصوت؟!

لم يجبه، كعادته يقول له كلمات قليلة، ثم يتلاشى في صدى يتردد داخله.

طوى ثائر الطريق تحت قدميه، حتى صار في مكان العمل، ربط الحبل حول خاصرته، ولفه حول النخلة الطويلة...

– أطول النخيل لك يا ثائر.

ضحك أهيب وهو يضرب كتف ثائر بيده الضعيفة، وأكمل قائلاً:

– إنك الأقوى من بيننا.

صعد ثائر النخلة مرتفعًا ،يقترب من السماء كلما صعد، أو تقترب هي منه، يكاد يلمس السحابات التي تمر فوق رأسه، التي ربما تهبط خصيصًا لتقذف في وجهه رشات ماء تنعشه من قسوة الشمس المشتعلة من فوقه.

(إنه النور يا ثائر، ابحث عنه داخلك)

الصوت مرة أخرى، سمعه وهو يجلس ليقتات لقيمات الغداء، أمامه أهيب يثرثر كعادته، لا يسمع من ثرثرته شيئًا، ولا يرد عليه، فثائر صامت دائمًا، وأهيب لا ينتظر منه ردًا، فقد اعتاد صمته، وأحب صحبته، كما أحبها ثائر، فمَن في نفس عمره –من شباب الواحة– يتحاشون صحبته منذ حادثته مع الصبي قديمًا، يخشونه، إلا أهيب يشعر بالقوة وهو معه.

– أي نور؟!

صمت أهيب دهشًا، ثم قال: هل قلت شيئًا يا ثائر؟

لم يجبه، وأشار له أن يصمت قائلاً: انصت.

سمعا صراخًا، تجمع ناحيته كل الحاضرين، يأتي من الجانب الشرقي، خلف التلة، جرى الجميع تجاه الصراخ ومعهم ثائر، فوجدوا رجلاً دون الأربعين يصرخ، يرتعش كالمحموم...

– إنه عقرب أو حية لدغته.

استمعوا إلى أقوال الناس، الذين تحلقوا حوله، لا يجرؤون على الاقتراب منه، يخشون أن يكون ملبوسًا، فالعقرب يمكن أن يقتلوه، أما الجن فلا يستطيعون مواجهته!!

علا الصوت في رأس ثائر (النور داخلك، إنه في يديك)

وحده تقدم من الرجل، جلس على ركبتيه يواجهه، وضع يده على رأسه...

أقسم أهيب وهو يتحلق في حلقة من رجال البلدة وصغارها، يحكي لهم ما كان، متفاخرًا بثائر...

أقسم أن السماء رعدت، واختفت الشمس حين وضع ثائر يده على جبهة الرجل، فصرخ الرجل صرخة عظيمة، وقامت ريح قوية حملت الرمال، لتكون سورًا، أحاط ثائرًا والرجل على الأرض؛ فلم يرَ الباقون شيئًا، ثم...

يقول أهيب: لا شيء، هدأت الرمال، وظهرت الشمس، وقام الرجل المصاب، وكأنه لم يصب بشيء، وثائر ظل جالسًا على الأرض، يلتقط أنفاسًا له هاربة.

يسير ثائر في ريحانة، نظرات الحيرة تتبعه، لا يجرؤ أحد على سؤاله، الهمهمات كثيرة عنه، عن قوته التي لا يعلمون مصدرها.

على باب البيت وهو يستند متطلعًا إلى السماء، يرقب آخر أنفاس الشمس المغادرة، جاءته امرأة، لا تُظهر إلا عينيها، من وراء ثوبها ذي الحلقات المعدنية، التي تقطع السكون بجلبة اصطكاكها ببعض، وبنحيب مكتوم، لا يجعله يدرك ما تقول، ألقت بين يديه لفافة فيها طفل صغير، أشارت إليه، جسده أصفر اللون، أنفاسه ضعيفة، بالكاد تتحرك خلف صدره...

وضع ثائر يده على جبهة الصغير، إنه محموم، هم أن يعيده إليها، لكنها توسلت إليه أن ينقذه من الموت، فهو ابنها الوحيد، كل ذكورها يموتون، وهو الوحيد الفار من الموت، نظر إليها والشك يحمله على أن يعيد إليها الصغير، فهو لا يستطيع.

– كما أنقذت الرجل صبيحة اليوم الماضي. قالتها بصوت مرتعش.

– ماذا أنت يا ثائر، هل أنقذت الرجل حقًا من الموت كما تدعي المرأة، هل تستطيع أن تنقذ الصغير بين يديك؟! أي لعنة تلك.

زفر ثائر حزنه، والكلمات من رأسه، ووضع يده على جبهة الصغير مستدعيًا كل النور الذى داخله...

– أي نور؟ النور الذي حدثه عنه الصوت.

– أي صوت؟

كل شيء يبدو غير حقيقي في عيني ثائر، ضغط بيده على رأس الرضيع، لم يتحرك، لم يفتح عينيه، لم يسمع إلا خشخشة أنفاسه المتقطعة، دفعه إلى أمه، وقام مسرعًا يتوارى خلف بابه...

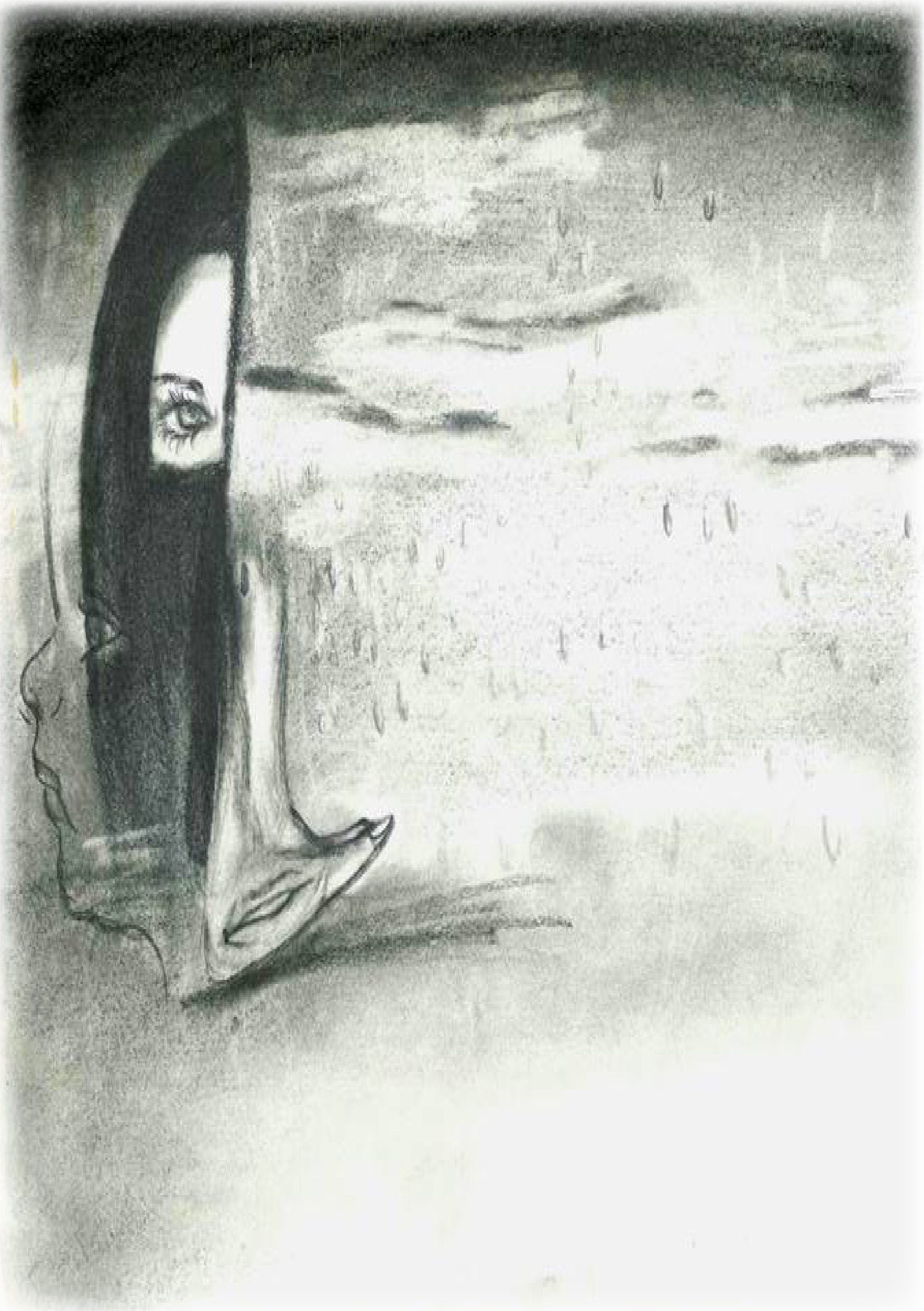

بكت المرأة، ضربت بكفيها الرمل أمام جسد الصغير الهامد...

انقلبت الدنيا: ريح، ومطر، ووحل، وضع ثائر أذنه على الباب يتلصص، انقطع بكاء المرأة، أو لعل جلبة المطر أقوى من صوتها.

فتح الباب بحذر، فإذ المرأة أمامه –والمطر ينهمر من سماء ريحانة الحزينة– حاملة الطفل تظلل وجهه بيدها من المطر، اقتربت من ثائر، إن الطفل يبكي...

ظل ثائر مكانه، لم يأخذ منها الصغير، جثت على ركبتيها أمامه تقبل قدميه، وهو واقف حائر، لا يدري ماذا يفعل.

تناقلت ريحانة الخبر، في العتمة حمل ثائر متاعه، ودع أباه، واختلى في الصحراء؛ هربًا من المتوافدين إليه من كل بقاع ريحانة، بل من كل بقاع الواحة بمرضاهم وآلامهم.

– ماذا أنت يا ثائر؟! قلبي يكاد ينخلع، أين الصوت المتحدث إليك؟! لا شيء إلا الريح من حولك.

(إنه هناك يا ثائر، في مكان من الكون حولك، القوة ليست فيك، القوة فيه)

– مَن؟!

استيقظ ثائر من غفوته، وهو مُلقى على أرض الخيمة التي ثبتها في الصحراء...

– مَن؟!

تسأل عن الصوت الذى جاءه في غفوته...

– إنك تلعب بي يا هذا الصوت اللعين، ألغاز تلقيها إلي لا أفهمها... القوة فيه، ألا تمل تحيرني؟!

– ثائر، ثائر.

إنه صوت سلمى الرقيق، خرج إليها من الخيمة.

– سلمى لمَ أنتِ هنا؟!

– أبحث عنك.

أطال النظر في عينيها الرائعتين بلون الشمس الذهبي، من وراء برقعها المحصورعنهما، تطلع إلى ضفائرها الحمراء، التي تعاند ستر رأسها هاربة فوق كتفيها...

– اذهبي، لا يجب أن تكوني هنا... تطلع إلى السماء وقال: العتمة اقتربت.

– ثائر، لماذا تهرب، لماذا تبعدني عنك؟

اقتربت منه، لمست يديه، كاد يغلق يديه على يديها الرقيقتين، لكنه تراجع، نهرها وأمرها بالرحيل.

سلمى ابنة عمه، هي حلم طفولته، كم تمناها، ورأها في أحلامه، زوجته ضمنًا، لن تكون لغيره بحكم قانون الواحة، ولكنه لا يفكر في النساء، يحلم بنور عينيها أقوى وأجمل من الشمس، يسعد بحلمه، ثم يفيق على الصوت مرة بعد أخرى يشغله عن كل ما سواه.

***

تخيط سلمى آخر القطع المعدنية في صدر ثوبها، الذى تعده لزفافها، جاءت النسوة، حضروها للزفاف، ارتدت ثوبها الزاهي، أضفن الشدة إلى ضفائرها، وضعن الدلاية فوق رأسها تلمع بقطعها الفضية في عيونهن، كحلن عينيها، وضعن في أنفها خرط دائري، وأخيرًا أحطن معصمها بسِوار فضية...

استمر الغناء والرقص حتى دخل عليها ثائر، أمسك يدها...

– آه...

جرحت سلمى يدها بالمخيط، مسحت نقطة الدماء من فوق إصبعها بإبهامها، ولعقته بفمها، ثم قامت تاركة أحلامها لوقت آخر.

تتعاقب عليك الأيام والليالي، لا فرق بين ليلك ونهارك، إلا غفوات قليلة، تقتات القليل من التمر الذى يأتي به الناس طلبًا لودك، ولكنك تُعرض عنهم، وتختبئ داخل خيمتك.

– يا ثائر، اخرج لي.

إنه أهيب، يأتيك ليسامرك في لياليك الطويلة، يطمئنك على أبيك، يظل يتكلم كثيرًا،عن كل الأشياء يحكي، يأتيك بأخبار ريحانة، هو أذنك التي تركتها في ريحانة...

– رجال البلدة يزعمون إنك لن تعود، يقولون أن الشيخ عيد طردك ليتقي سحرك.

– ماذا؟!

– إنهم يأملون... خفض أهيب من صوته، همس مقربًا رأسه منك:

– أن تنقذهم من ظلم الشيخ وجبروته، لقد ضرب الولد ابن إبراهيم القاسم عشرين سوطًا واتهمه أنه سرق من التمر، وظل الولد يبكي كالنسوة، وكاد يموت ولكنه لم يرحمه، يا ساتر المال عنده أهم شيء.

– أي سحر؟!

رفعت رأسك إلى السماء، غارقًا في أفكارك، تركت أهيب يكمل، وأنت في عالمك حائرًا...

ربما هو سحر يخرج من داخلك دونما تدري، السحر شفى الرجل، وأنقذ الطفل من الموت، السحر صنع كائناتك الصغيرة التي تخفيها عن العيون...

وحيدًا تجلس في الليالي المظلمة، تأخذ من الرمال القليل، تحمله بين يديك، تخلطه بالماء، تصنع بيديك طيورًا، وحيوانات صغيرة الحجم، تنظر إليها، فقط تنظر إليها، تسمع الصوت:

(مرها أن تتحرك)

تأمرها، تدعُها كما أخبرك؛ فتسير، تتحرك، تُخرج جناحات خفية من ظهورها، ترفعها إلى السماء...

تذكر رعدات جسدك الواهن، حين رأيتها تتحرك، اختبأت داخل الخيمة، الصوت الراعد من فوقك قال:

(لا أحد هنا سواك، كائناتك الواهنة تراب)

اقتربت منك إحدى مخلوقاتك، فازداد فزعك، ركلتها بقدمك؛ فتناثر ترابها الأسود حولك.

ركعت على قدميك، تجمع شتات نفسك، ضحكت، وضحكت، حتى سمعت ريحانة ضحكاتك.

– يا لك من أحمق، ما أنت يا ثائر إلا أخرق يحيا بين أوهامه، أي قوة تدعي؟ هل تستطيع أن تأمر الشمس فتغيب، أو تأمر القمر فيسطع، هل تستطيع أن تمنح نفسك جناحين تطير بهما فوق ريحانة، الغارقة في أحزان أهلها وفقرهم؟!

تخرج من أفكارك على ثرثرة أهيب المستمرة.

***

جاء الشيخ سالم، وضع يده على رأسك، تلا تعويذات لم تسمعها من قبل، ابتسم في وجهك؛ فرأيت أسنانه البيضاء من بين لحيته الرمادية الكثة، أطال النظر في عينيك،

ضاعت ملامحه رويدًا رويدًا، حتى تلاشت لا أنف له، ولا فم، ولا أعين، رفع يده من فوق رأسك وبعد أن مررها على وجهك، وضعها على وجهه الخالي من الملامح...

ثم رفعها من فوق وجهه؛ فرأيت نسخة من وجهك منطبعة على وجهه بلحيتك القصيرة السوداء، وآثار البثور المشوهة لوجهك الذى صار وجهه الأن.

أيقظتك أشعة الشمس، قررت أن تذهب إلى ريحانة لترى أباك...

سرت متخفيًا، تلثم وجهك، حتى اقتربت من بيت أبيك، فرأيت رجالاً مجتمعين أمام الباب تخطيتهم، وهم يتابعونك بنظراتهم القلقة، دخلت البيت، النساء يجلسن على الأرض، سلمى بينهن، وأبوك على الفراش، مغلق العينين...

مات الشيخ سالم بعد سنوات قضاها يبحث في أرحام النساء عن ولد، فلم يسعفه إلا رحم أمك بك وحدك يا ثائر، ظل يتنقل بين النساء، يتزوج فلا تحمل امرأته، فيخرج من بيت أبيها بعد عام واحد قضاه في خدمته، ليبحث عن أخرى، وينتقل إلى بيت أبيها حتى تحمل –فهذا قانون الواحة– فلما حملت أمك، استطاع أن يأخذها وينتقل إلى بيت خاص به، ولكنها ماتت سريعًا، وتركته يبحث مرة أخرى في أرحام جديدة.

سمعتهم يتهامسون عنك...

قال أحدهم لصاحبه:

– لو كان يستطيع أن يشفي المرضى، لشفى أباه.

وقال آخر لصاحبه:

– لقد علم بموت أبيه دون أن يخبره أحد، إنه يعلم الغيب أيضًا!

وقال ثالث:

– أتعلم لمَ لم يشف أباه، لأنه لا يحبه، فقد كان رجلاً قاسيًا؛ لم يبتسم في وجه ابنه أبدًا.

دُفن الشيخ سالم في مقابر ريحانة، ريحانة صارت مقبرة كبيرة؛ البعض من أهلها أسفل التراب، والبعض فوقه، لا فرق بين الحي والميت، إلا صوت الأنفاس الواهنة.

يا ريحانة البائسة، جزء أنت صغير من أرض الواحة، الواحات حولك تنعم بالخيرات، أما أنتَ ففقيرة بأهلك، أرضك كلها ملك لشيخَك وأبناء عمومته، ومَن عداهم يعملونَ في تلكَ الأراضي، يأخذونَ مقابل العمل الشاق القليل من التمر أو بعض الحبوب التي يزرعونها، ولا شيء غير ذلك، إلا إذا رضى الشيخ عن أحدهم؛ فيكافئه بزيادة المكيال قليلاً...

أهل ريحانة الفقراء، يجدلون سعف النخيل سلالاً، وتصنع النساء منه النشابات، والبعض يصنع الفخار قللاً وآنية، في المصنع الوحيد الذى يملكه أيضًا الشيخ عيد.

الجميع يبكي، لا يبكون حقيقة على الشيخ سالم، إنما يبكون أنفسهم.

دخل ثائر البيت الذى خلا من صاحبه، جلس على فراشه يتذكره، لقد خلت ذكرياته إلا منه: يجري حول قدميه طفلاً، ويجلس تحت قدميه في مجلس الشيوخ صبيًا، ويطعمه شابًا بعد أن أصابه الكبر بعدم الحركة.

وفي كل العمر السابق، لم يبغ ثائر إلا أن يرى ابتسامة الرضا على وجه أبيه العابث أبدًا، الذى زادت مع عبوسه، نظرة فزع حين رأي قوة ثائر وهو بعد صبي صغير.

شعر ثائر بدفء يد وضعت على كتفه، رفع وجهه ليرى سلمى بوجهها الدائري بلا غطاء يخفيه تبتسم له...

– ألم يحن الوقت لكي أكون معك؟

لم يجبها.

– أنا جميلة يا ثائر، ألا تريدني زوجة؟ لقد مات أبوك ولم ير أبناءً لك.

واجهته، واقفة أمامه، ألقت عن جسدها عباءتها السوداء؛ لتظهر بجسدها البض عارية جميلة حقًا كما قالت...

نظر إليها طويلاً، حدث نفسه:

– ألا تستطيع أن تخلق جسدًا جميلاً كجسدها، مخلوقاتك الترابية قبيحة.

اقتربت منه، أخذها بين يديه، ألقاها على فراش أبيه، تشمم جسدها، مرر يده عليه، اقترب بفمه منها دون أن يقبلها، فمه ينتقل على أجزاء جسدها دون قُبل...

إنها العتمة ظهرت تخفي جسدها الأبيض، رائحة مخلوقاته الترابية باتت تملأ أنفه، وضاعت رائحة جسد سلمى؛ قام سريعًا، وتركها على الفراش مغمضة العينين، تتلذذ بأنفاسه على جسدها، وذهب مغادرًا...

فتحت عينيها، فزعت قامت خلفه، ارتدت ملابسها، أسرعت تتبعه مذهولة، تلعنه، وتقول من بين دموعها، وهو يسرع الخطى خارج الدار، أمامها مباشرة:

– أأحمق أنت، ألست رجلاً، ألا ترغب في النساء؟! الأفضل لك أن تظل في خيمتك هاربًا تزعم أنك تستطيع أن تشفي المرضى، فلتشف نفسك أولاً، ولماذا لم تشفِ أباك، لقد تركته يموت في وحدته، إن كنت تستطيع أن تَخفف آلامهم لماذا تهرب؟!

لحقته، جذبته من ردائه، أكملت كلماتها من بين الدموع والحزن:

– وماذا عني، ماذا سأفعل؟ عمري يفر من بين يدي، لا شيء لي إلا الانتظار، ماذا أفعل؟

خلص نفسه منها، وتركها تبكي، ورحل.

(ارجع يا ثائر، ريحانة تنتظرك، خفف عنهم آلامهم، أَخرج ما بداخلك من نور من أجلهم)

الصوت مرة أخرى...

قرر ثائر أن يعود، يستجيب لأمر الصوت مرة أخرى...

جلس أمام باب بيته يستقبل كل مَن يحمل ألمًا، يخلصهم من آلامهم، يشفي أمراضهم، وقرب المغيب يقوم يختلي بنفسه داخل البيت، أو يرحل إلى خيمته، يخلق مخلوقاتٍ، ويحيل أخرى إلى التراب.

إنها الأربعون، العاصفة شديدة، حالت بينه وبين ريحانة، لا أحد يخرج من بيته منذ ثلاث ليال...

- ملعونة هي الأرض التي تُخرج الحزن من بطون أبنائها أنهارًا، وتتركهم يلتحفون حزنهم والجوع.

لا شيء إلا العراء، لمَ لا تأمر الريح فتنقشع، لمَ لا تأمر السماء فتبلع ماءها؟ عاجز أنت يا ثائر، مخلوقاتك الحمقاء غرقت، لم تستطع البقاء، لم تستطع الصمود، وريحانة غارقة في الحزن، سماؤها تبكي عليك، وأرضها تفيض كرهًا وحقدًا...

ابكِ يا ثائر، لن يرى دموعك أحد، ابكِ على الأربعين التي مرت والحزنَ، بكى ثائر، ولأول مرة يتذوق طعمَ دموعه...

(يا ثائر الأيام أقدام تسير بك إلى الأعلى)

إنه الصوت، إنه جنونك مرة أخرى...

- من أين تأتي؟!

صرخ، صرخ بأعلى صوته، علا نشيجه، امتزج بالمطر، قام، تقدم يجري بلا هوادة ترك جسده للريح تحمله، كما اقتلعت خيمته من مكانها، نظر إلى البرق متحديًا الضوء القادم من السماء، وصوت الرعد، والمطر الغزير، صرخ بأعلى صوته:

- توقف، لا تعذبني، اخرج من خبائك، اترك سماءك، افتح الباب الذى يبعدك عني، واجهني...

سقط ثائر أرضًا؛ حيث أصابته الصاعقة، وكان آخر ما سمعه:

(اصرخ كما تشاء، فصوت الرعد وإن علا يتلاشى في الهواء)

***

تلاشت السحب، وابتلعت الأرض آخر قطرات الماء، وتربعت الشمس في سماء ريحانة ترسل الدفء إلى الأجساد العليلة، انشغل الناس بدفن الموتى، وعلا النحيب لَمن استطاعه، فقد أخذ الوهن من الأجساد حتى القدرة على البكاء...

عدّ الناس ثائر من الأموات، ظنوا أن العاصفة ابتلعته، كما ابتلعت كل بيوت ريحانة، حتى بيت الشيخ عيد لم يصمد، صار أعمدة بلا جدران...

بحثت سلمى عن ثائر...

– لو أجد جسدك بين الموتى، أراك ذليلاً، رمة أكلتها المياه، أتحرر من قيدك بالموت الذى ظللّت أنتظره أن يأتيني، فكان رئيفًا بي، وأخذك لينتقم لي منك...

بكت وهي تمر بين الناس، الذين منهم من يحفر المقبرة الكبيرة التي شرعوا في إعدادها، ومنهم من ينتحب وحيدًا على موتاه، ومنهم من يبحث في الجثث المجمعة بجوار بعضها البعض على قريب أو على رفات حبيب...

– لا يا ثائر، لا تمت، أنا أحتاجك، فكيف سأحيا في هذه الدنيا من بعدك.

انتحبت، فجاءتها امرأة عجوز، قادتها لتجلس بين النسوة المنتحبات، اشتركت معهن في سيمفونيتهن الباكية الحزينة.

***

(استيقظ يا ثائر، اذهب لتجد لجسدك مكانًا للحده)

فتح عينيه ببطء، داهمته أشعة الشمس بدفئها، الذى ألّف مع الطمي رائحة اغتسال الأرض من أدرانها...

سار ثائر إلى ريحانة، يتأمل الواحة، وقد صارت جزءًا من الصحراء حوله، ليس فيها إلا أطلال الحياة، وبقايا البشر.

لم تصمد ريحانة، لم تخرج القوة من داخلها، كما هزمت الفرس قديمًا، لقد فقدت الأرض قوتها...

– آه يا ريحانة، ستزدادين فقرًا على فقر، وحزنًا على حزن.

رآه أحد الرجال، فهتف بالآخرين، تهامسوا بينهم، تسألوا كيف تغلب على العاصفة، وهو وحيد وسط الصحراء؟!

ناداه أحدهم وهو يجرى، جاثيًا بين قدميه:

– مولاي لقد عدت، أنقذنا.

تجمع باقي المعذبين حوله يلثمون أقدامه، حملوه فوق أعناقهم، طافوا به أرض ريحانة يُعلمون الباقين بعودته.

لم يستطع ثائر لهم شيئًا، غير همهمات عزاء لا يسمعونها، ولمسات من يديه سعوا يتخبطون حتى ينالونها.

جلس ثائر على جزع نخلة اجتثته العاصفة من جذوره، أمرهم أن يستمروا في العمل فدبت في أوصالهم الضعيفة الحياة، بمجرد أمره الفقير عن مساعدة.

توارى ثائر حين الليل خلف جدار هزمته الريح فترنح وسقط نصفه، عبثت يده في الرمال المتشبعة بالمطر، حملها بين يديه، صنع منها جسدًا، خط له عينين، وفم، كالبطريق صار كائنًا لا يملك إلا جسدًا طينيًا من قطعة واحدة، رفعه بين يديه وألقاه؛ فطار...

سمع شهقة من خلف الجدار المستند إليه، قام إلى مصدر الصوت فإذا بفتى في الخامسة عشر من عمره تقريبًا يرعد، بكى حين رأى (ثائر)، جثا على ركبتيه، قبل قدمي ثائر قائلاً بصوت مرتعش:

– مولاي، أنت إلهي.

– إلهك!

أمسكه من ملابسه، جذبه إليه بقوة، صرخ فيه:

– لمَ كنت تتلصص علي؟

– ك، كنت، كنت أتطلع إليك إذا أردت شيئًا أسرعت إلى تلبيته لك.

– ما اسمك؟

– خادمك شهاب بن إسماعيل النوري.

– أعرف أباك، رجل فقير.

هزّ الفتى رأسه موافقًا، وهو يرتعش بين يدي ثائر الذى جذبه جذبة شديدة، أشد من سابقتها، مما زاد ارتعاش جسده الصغير، وقال في قسوة:

- إياك أن تخبر أحدًا بما رأيت.

هز الفتى رأسه مؤكدًا، أطلقه ثائر،فأطلق الأخير قدميه إلى الريح، يتعثر، فيقوم، وهو ما زال يرتعش.

- إله أنت يا ثائر، أقوى من الشمس، والتراب، والنخيل، فأيهم يستطيع أن يخلق كائنًا يطير، أيهم يستطيع أن يشفي بلمسة يد، إله أنت يا ثائر، ريحانة تعلم هذا، وإن توقف الصوت فليتوقف، فما حاجتك إليه، إله مثلك لا يحتاج لِمَن يأمره، بل لا يحتاج شيئًا مطلقًا.

***

بنى أهل ريحانة لثائر بيتًا من جدران خشبية وسقف من سعف النخيل الساقط من العاصفة، جلس ثائر يحكم بينهم، متحلقون حوله، أذلاء بين يديه، سرى خبر الكائنات التي يخلقها بين الناس، سرًا يتناقلونه بينهم من لسان إلى لسان.

أخذ ثائر يقسم بينهم العيش، رفع بعضهم فوق بعض، قرب البعض، وأبعد البعض، صار ملكًا عليهم، إلههم الذى يسير على الأرض.

لم يعد أهيب يثرثر، ولم تعد سلمى تحلم أن تتزوج بالإله، نسيت فستانها الذى طرزت صدره منذ طفولتها بالقطع الفضية لترتديه يوم الزفاف، تذكرته يوم العاصفة، انفلتت من الجمع وجرت، تسبح قدمها في المياه حتى باب الدار، بحثت عن الصندوق الغارق في الماء، ضربته بكل قوتها حتى انفتح، أخذت لفافة ثوبها المطرز، وحملتها فوق رأسها... حتى نهاية العاصفة ظلت تحملها.

لكنها الآن تركته ڧ صندوق جديد، ونسيته، ولم تعد تفكر ڧ القرط الذى حلمت أن تضعه ڧ أنفها عند الزواج، توقفت أحلامها...

هرب الشيخ عيد ڧ ليلة مظلمة بعد أن سرى القول: بأنه سيكون قربانًا لثائر؛ ليرضى عن ريحانة، فتعود أفضل مما كانت، لأن ثائر قال ڧ يوم ما:

– يجب أن يؤتى بأشد الناس ظلمًا، فيراق دمه ويرش على أرض ريحانة لتعمر.

ولما هرب الشيخ عيد، تلفت الناس عن أشد الناس ظلمًا، فلم يجدوا إلا (ثائر)؛ الذى حكم على أبناء الشيخ عيد بالقتل؛ لأنهم يحملون دمًا ملوثًا –كما زعم– ولكن ثائر إله وإن ظلم!

ارتفعت قضبان وهمية، وأُتى بابنيّ الشيخ عيد: ياسين وآسر– اللذان ما استطاعا الهرب– مسلسلين ڧ الحديد، تحلق حولهم رجال أقوياء، وضعوا عصى طويلة غرسوها ڧ الرمال وتحلقوا حولها، فصارت قضبانًا تشل حركتهما...

عُقد المجلس، لا شيوخ هناك يتكلمون، فقط ثائر يسأل ويجيب، يقضي ويحاسب، تحلق رجال القرية ونساؤها ينظرون، ويستمعون، تزيغ أبصارهم مع نبرات ثائر الحادة، ويبتلعون جفاف حلوقهم، مع همساته، يرتعدون وكأنهم يحاكمون، يسعدهم فقرهم الآن، عوزهم الذى جعلهم من زمرة المساكين...

غاصوا في الرمال وهم يسمعون حكم ثائر الذى ختم به جلسته:

قد تدعيان ألا تهمة حقيقية عليكما، ولكني أرى جرمكما متمثلاً أمامي، يملأ ما بين السماء والأرض، إنه الصمت، الصمت الذى واجهتم به ظلم أبيكم، صمتكم رضا...

ورضاكم بالظلم ظلم أكبر.

والتفت يواجه أهل ريحانة بعينين احمرتا غضبًا:

وأنتم أيها المساكين، صمتكم خنوع... ولكن صمتكم أمامي قبر محفور تحت الأرض، قبر سكنتموه، فصرتم بموتكم فيه موتى، والموتى لا يحكم عليهم بالموت.

فقد متم من قبل ألف مرة...

أما من بقى من أهل الظالم، فيستحقون الموت، لتُروى بدمائهم الملوثة بالظلم، أرض ريحانة البائسة، لترضى.

أشهر ثائر سيفًا، ومر كالعاصفة بين القضبان، وأطاح برأسي الرجلين معًا، فطارتا أمتارًا بعيدة، وتناثرت الدماء تروي أرض ريحانة.

***

مرت أيام على ريحانة، لا تُشم إلا رائحة الدماء من بقاعها، وتغير لون ترابها للون داكن مشبع بالحمرة، باتت تقتات الكره مع غذائها، كثرت الوشايات بين أهلها، ظهرت الأحقاد هُزمت الهامات العليلة بالمرض والجوع والفقر والكره، والكره أشد فتكًا من الجوع...

يرى ثائر أن الموت ملجأ مُخلص لهؤلاء المساكين، الحائرين من العجز، يكفي ريحانة القليل من المعوزين، والباقين فلتغلق أبواب الحياة أمامهم، هذا قانون ثائر؛ لكل إله قانونه.

***

وحدك، لا يؤنس القمر لياليك كما عهدت حين كنت تختلي في خيمتك التي كانت...

تتلمس جسدك، ازددت طولاً، تشعر بخشونة يديك التي لم تعهد من قبل، تمرر يدك على وجهك، صار أكثر نحافة، برزت وجنتاك، وزادت آثار البثور فوق وجهك، أسنانك العليا برزت من فيك الرفيع...

هل صار وجهك قبيحًا يا ثائر؟ من يخبرك بالحقيقة؟

الظلام لا يخيفك، ولكنه يزعجك، لا أحد يسجد بين يديك في هذا الليل الحالك، ريحانة تنام على جراحها العميقة، يحملها أهلها في وقت الغروب، مثقلين بالخوف والصمت يتوارون خلف أبواب بيوتهم، لا متعة لك إلا مخلوقاتك الصغيرة، لو تستطع أن تجعلها تنطق باسمك، لفعلت، لكنك لا تعرف كيف...

لم تعد عبادة أهل ريحانة لك تكفيك، تحتاج لمن يزيد من شعورك بالعزة، لو أنك خلقت الكثير من هذه المخلوقات؛ لجعلت منهم شعبًا يُسبح بقوتك، سيكونون أكثر طاعة من أهل ريحانة...

الليل طويل يا ثائر، فلتجعله ثلاثة أجزاء: أوله تخلق الكثير من كائناتك، وثانيه تعلمهم أن يسجدوا بين يديك، وثالثه تقتل

من تريد منهم، وتُبقي على حياة من تشاء، وحين يأتي النهار تأتي بهم إلى ريحانة فينبهر الجميع بقدرتك، آن الأوان أن ترى ريحانة قوتك وقدرتك.

صنع ثائر عشرات من كائناته الترابية، ثم أمرهم أن يواجهونه:

– أمامي الآن قفوا، اصطفوا صفوفًا كثيرة، اسجدوا لي، بين يدي اقتربوا.

تحركت الكائنات، اقتربت من ثائر، نفذت أمره، لم تسجد كما أراد، لم تنطق مسبحة بقوته، بل اقتربت منه حتى طوقته، ولم تتوقف، كادت تخنقه، يشم من قدومها نحوه رائحة التراب، كم هي قبيحة تلك الكائنات، لها أصوات كالجرذان الصغيرة التي كانت تأكل السلال من المصنع القديم للشيخ عيد...

صوت يخيفه، يتسرب إلى عقله أقوى من صوت الرعد الذى اعتاده، لن يهرب، هي مخلوقاته التي صنعها بيديه، كيف يخافها...

أمرها بالابتعاد، ولكنها لم تستجب له، أخرج سكينًا صغيرًا من طيات ردائه، أخذ يقاتلهم، يصرخ فيهم؛ أسقط بعضهم ولكن الآخرين ظلوا يتقدمون منه، حتى أسقطوه أرضًا، أمرهم أن يتراجعوا، ولكنهم تقدموا حتى اعتلوا جسده ورأسه، صرخ فصارت مخلوقاته ترابًا ملأ فاه وأنفه وعينيه.

***

ظهرت شمس ريحانة على فقرائها المعوزين، منحني الظهور، المنهكين من أوامر ثائر التي لا تنتهي...

مرت أيام وهم يقومون بأعمالهم كما اعتادوا، دون أن يبحثوا عن ثائر، أو يسألوا عن سبب اختفائه، كالآلات يتحركون بلا تفكير.

بعد أيام قليلة وجدوا (ثائر) ملقًى على الأرض، مفارقًا للحياة...

ضحك بعضهم طربًا، وبكى أكثرهم حتى قتلوا أنفسهم بكاءً.

دُفن ثائر في قبر كبير، بُني له وسط ريحانة بشاهد مرتفع رسموه بأشكال هندسية مثلثة ولونوه بألوان زاهية، وأحيط بسياج حديدي، وجُعلٍ له خادمًا يقوم على نظافته...

جاء كثيرون يدورون حوله، يأمرهم القائم على القبر أن يبدؤوا لفاتهم من اليمين، يبكون وهم متعلقون بالسياج، يسألونه أن يشفيهم، أو ينصرهم، أو يخلصهم من آلامهم الكثيرة، يذبحون القرابين أمام قبره، ويريقون دماء بعضهم قرابين أمام ضريحه الصامت؛ فهم ينفذون قوانينه، كما لو كان ما زال يحيا بينهم.

يحدث الآن في بني ثائر

في هذا الصباح لم تر ريحانة نورًا يوشي بانبلاج الفجر، اجتمعت سحب السماء تعلن عن بدء عاصفة جديدة...

نظر إلى السماء بعينيه الضيقتين، تختلج ثنايا وجهه المتغضن بالتجاعيد، وقال جدي لأمي:

– اعتدنا على مثل هذا الطقس المرعب، لكنه أبدًا لم يكن كما حكى لي جدي.

– وماذا حكى لك جدك يا جدي؟

– إنها قصة طويلة... الأفضل أن أذهب إلى مقام سيدى ثائر، أدعو لعل العاصفة تمر بسلام.

– سرت بجواره، أمسك يده، يستند بجسده الضعيف على جذعي، يهمهم بأدعية بصوتٍ خشن، أخشى الرعد يا جدي، ما كان يجب أن نخرج الآن...

– لم أخبره بهذا، فالعشر سنوات التي أحملها تعلن أني رجل يجب ألا يخاف...

– سرنا طويلاً حتى اقتربنا من المقام المختفي بين دوامات الرمال، كلما اقتربنا كلما عمى التراب عيني؛ فلا أكاد أرى شيئًا...

– بعض العجائز يقفون هناك، كلما اقتربت ظهر صوتهم أقوى، إنها الابتهالات الغامضة، التي زادت رغبتي في البكاء...

- مكثنا كثيرًا، أعلن أحدهم أن السماء ستمطر الآن... كنت أعلم ذلك على أية حال...

- هدأت الدوامات الترابية، وبدأ المطر...

- جدي، الأفضل أن نرحل الآن.

لم يلتفت إلي، جثا على ركبتيه، ترك عصاه تسقط، وتعلق بالأعمدة الحجرية للمقام الساكن وسط الصحراء.

المطر ينهمر بلا توقف...

وكلما زاد انهماره، أصر جدي أكثر على عدم الرحيل، قررت أن أعود إلى البيت لآتي بمن يساعدني في إقناعه.

الطريق طويل، المطر ورياح تحيطني تدفعني إلى الخلف، أقاوم كما الرجال، أردد كما كنت أسمع أمي حين تتألم في لحظات الولادة لأحد إخوتي الصغار: ساعدني... ساعدني.

لم أسألها يومًا من تطلب مساعدته، سمعت الرجال هناك عند المقام يرددون نفس الدعاء، يعلو صوتهم رغم الرعد وصوت المطر، يعلو حتى أني أسمعه مع خطواتي يرتفع مع ابتعادي عنهم...

ويظل الشيخ ولد إسماعيل النوري المسئول عن المقام، يعلي من صوته بالابتهالات التي لا أفهمها، كلما خبا صوتهم، علا صوته كأنه ينهرهم، أو يضربهم بسوط يذكرهم بضرورة الاستمرار، وعدم التوقف.

لن أضل طريقي طالما أردد، بلا فتور أردد: ساعدني... ساعدني.

أبكي، لا أحد هناك سيسمع صوت نشيجي، أجري، أُسرع أكثر،

رأيت اللهفة في عيني أمي حين رأتني، لم تسألني عن جدي، لم تلتفت لدموعي؛ لعلها حسبتها قطرات مطر...

أخبرتها أن جدي هناك، يجب أن يأتي به أحد.

أخذتني من يدي، وأسرعت إلى داخل الدار، أغلقت الباب وشرعت تحاول تدفئتي...

مر يومان، المطر لا يتوقف، بعض البيوت الضعيفة لم تصمد في مواجهة العاصفة، كنا نسمع الصراخ ونحن نلتف أنا وإخوتي الصغار حول أمي، المنكمشة بجوار الفرن...

يخرج أبي، يغيب، ثم يعود بجسد مبتل وعيون حزينة.

مر يوم آخر، الماء الآن داخل البيوت يغطي سيقاننا...

خرجنا من الدار، رفع أبي أختي الصغيرة فوق كتفه، وحملت أمي أخي الرضيع في قماش لفته جيدًا حولها، أمسكت بيدي الصغيرة ويد أخي الأصغر مني بعام، كنا نسير وأهل ريحانة، نبتعد عن بيوتنا، إلى الصحراء حيث تركت جدي نتجه، نقاوم الماء الذى صار قريبًا من صدورنا أنا وأخي الآن...

البعض يقع من حولنا، هناك من يساعده على النهوض ليستمر في المسير، والبعض يقع ولا نستطيع مساعدته...

توقف المطر، ولكننا لم نتوقف عن السير، قال أبي: ستظهر الشمس قريبًا، ونجد مكانًا أفضل لنبني بيتًا جديدًا.

غابت الشمس كثيرًا حتى سقطت رأس أختي فوق رأس أبي الذى استمر في حملها، كانت أمي تبكي، فينهرها أبي، قال: إنه لن ينزلها حتى يجد مكانًا مناسبًا لدفنها.

الشمس، بعض نور ظهر من خلف بقع السحب التي تملأ الأفق...

ابتسم الرجال، بدأ صوتهم يردد: ساعدني... ساعدني.

بإيقاع منتظم يدعون، ونحن الصغار نردد من خلفهم، طبقات أصوات شتى تظهر، تعلو، ثم تختفي، وتظهر مرة أخرى، لابد أن الإله سمع النداء؛ فقد ظهرت الشمس بعد حين ضعيفة، ولكنها أسعدتني على كل حال.

توقف الجمع فجأة...

أشار أحدهم إلى شيء يطفو فوق الماء يقترب منا كلما تحركنا...

أشار آخر لشيء من الطرف الثاني يقترب أيضًا، أشار ثالث ورابع...

توقفنا...

قال أبى: إنها جثث.

بكت أمي، تذكرتُ جدي، لعل جسده جاء إلينا طافيًا.

أخبرني أبي حين جلسنا على الأرض– بعدها بحين:

إنه حين سبح وأختي ما زالت فوق رأسه في اتجاه الجثث الطافية، كانت جثث لرجال كثيرين لم يعرفهم ولا أحد من رجال ريحانة عرفهم.

الجثث كانت تسبح، قال البعض ذلك، قالوا إنهم كانوا يسبحون، وحين رأونا أسرعوا أكثر.

قال البعض: إنهم كانوا يفرون من الإعصار.

وزعم أحدهم: إنه لمس إحدى الجثث، فرأى نظرة رعب في عينيها شبه الملموسة.

إنه مقام سيدى ثائر، قالت أمي: لربما أرسل لنا بجثث الموتى القدامى.

لم يسألها أحد: لماذا؟

ما حاجتنا للموتى يا أمي، جدي ليس أحدهم، ما حاجتنا لغيره.

سيدي ثائر... مدد... ردد كثيرون.

إنه لعين، لقد هرب هو والموتى. كنت أريد أن أقول ذلك، ولكنني لم أستطع إغضاب أمي، فيكفيها الحزن على فراق جدي وأختي ودارنا القديمة في ريحانة.